قصة يوسف الصديق مع امرأة العزيز

دخل الأستاذ الفصل وفوجئ بغياب عدد كبير من الطالبات فقال : أين بقية الطالبات ؟!

-بعضهن في الرحلة ، والأخريات غائبات .

- كم طالبة في الرحلة ؟

- تقريباً خمس أو ست .. خمس طالبات .

- إذن نسبة الغائبات كبيرة .

- غِبْنَ لأنهن يعلمن أن الأساتذة لن يشرحوا دروساً جديدة اليوم .

قال الأستاذ مازحاً : ولماذا حضرتن إذن ؟!

-نحن طالبات ملتزمات .. هرباً من عمل البيت .. لأرى صديقاتي .. لتكمل لنا موضوع الأمس .

- ولكن عندنا اليوم حصتين لغة عربية ، وليس هناك حصة دين ، ونحن لا نناقش القضايا الدينية إلا في حصة الدين فقط لوجود طالبات مسيحيات .

- لا يوجد اليوم طالبات مسيحيات ؛ واحدة في الرحلة ، والأخريان غائبتان .

- أنت تريدين إذن تحويل حصتي اللغة العربية إلى حصتي دين !

قالت عبير مازحة : حضرتك لن تشرح شيئاً في اللغة العربية ؛ لأن عدد الطالبات الغائبات كبير ، وإذا شرحت شيئاً ستضطر إلى إعادته مرة ثانية .

ضحك الأستاذ وقال : وعن أي موضوع تريديني أن أتحدَّث ؟

– قصة سيدنا يوسف مع امرأة العزيز ؛ فقد وعدتنا أن تحكيها عندما تحين مناسبة ، وليس هناك مناسبة أفضل من اليوم .

– ولكن سارة غائبة اليوم وهي كما تعلمين أكثركن اهتماماً بقضايا المرأة ، وسوف تطالبني بإعادة القصة مرة ثانية .

– أولاً قصة سيدنا يوسف لا علاقة لها بقضايا المرأة التي تسأل عنها سارة ، ثانياً هذا الموضوع ...

قال الأستاذ مازحاً : ثانياً هذا الموضوع مثار اهتماماتك أنتِ .

–والله يا أستاذ أنت تظلمني ، كلهن يردن الحديث في هذا الموضوع ...

– وأنت المُعبِّرة عن رغباتهن ؟!

– نعم .. والله يا أستاذ .. ويتظاهرن أمام حضرتك بأنهن ...

أخرج الأستاذ التفسير الوجيز الذي يحتفظ به دائماً في حقيبته ، وفتحه على سورة يوسف وبدأ يشرح قصة يوسف وامرأة العزيز .

محنة الشاب الصالح

– لقد ضرب الله تعالى لنا المثل في القرآن بمن عفَّ نفسه عن الحرام وفضَّل السجن على الوقوع في الزنا وغواية النساء مع أنه كان شاباً في شرخ الشباب فكان جزاء صبره وعفته أن مكَّن الله له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، أما من انساقت وراء حبها ، وراودت من أحبت عن نفسه فقد كشف الله ستره عنها ، وألزمها الذل والصَّغار ، فالعفة والصبر على الهوى رفعا صاحبهما لدرجة الصديقين ، واتباع الهوى وعدم الصبر عليه قد جعل الأعزة أذلة .

﴿وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ في بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاى إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف : ٢٣] .

رفض الشاب التقى الورع الفقير عَرْض المرأة ذات المنصب والمال والجمال ، وقد تهيَّأت له في زينتها ، وأحكمت إغلاق الأبواب حتى لا يخاف أحداً يفاجئه ، ولم تترك شيئاً من دواعي الزنا إلا فعلته ، ومع ذلك عفَّ يوسف الصديق نفسه عن الحرام واستعاذ بالله من غواية المرأة . فلما وجدت منه الإعراض والعفَّة قررت إجباره على المعصية قهراً فجذبته بقوة من قميصه وقاومها بكل قوته لدرجة أن قميصه قد تمزَّق ، ولم يستجب لها لا غنجاً ودلالاً ، ولا عنفاً وإجباراً .

–ولكن أنا أعرف أن سيدنا يوسف قد همَّ بها كما همَّت به .

– بعض الناس يسيء فهم قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ويتهم سيدنا يوسف بأنه كان عازماً على فعل الفاحشة لولا أن الله تعالى أنقذه منها ، والحقيقة أن همَّ سيدنا يوسف كان همّاً عارضاً ولم يكن همّاً عازماً بخلاف همِّ امرأة العزيز الذي كان همّاً عازماً ولقد اعترفت امرأة العزيز بأنها كانت عازمة على ارتكاب الفاحشة ومازالت على عزمها ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ .

– وما الفرق بين الهمِّ العارض والهمِّ العازم يا أستاذ ؟

الهمُّ العارض والهمُّ العازم

– هناك فرق كبير بين الهمِّ العارض والهمِّ العازم . فالهمُّ العارض هو ما يخطر في النفس ولا يثبت في القلب ؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخَلْق، إذ لا قدرة للإنسان على دفعه . فهو وسوسة شيطان أو هوى نفس لكنه لا ينعقد في القلب بل يستعيذ المؤمن منه بالله ، ويجاهد بتقوى الله هواه فيكافئه الله تعالى بفرحتين : فرحة عاجلة ، وفرحة آجلة . فرحة عاجلة وهى حلاوة يجدها في قلبه كما قال رسول الله ﷺ "النظرةُ سَهمٌ مَسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ مَنْ تركَها مِنْ مخافةِ اللهِ أعطاهُ اللهُ إيمانًا يَجدُ حلاوتَهُ في قلبِهِ " [أخرج الحاكم وصححه عن حذيفة] .

أما الفرحة الآجلة ففرحته بحسنات يجدها في كتابه يوم القيامة . وهذا النوع هو الذي قال فيه النبي ﷺ " ... ومن همَّ بسيِّئةٍ فلم يعمَلْها كتبها اللهُ له عنده حسنةً كاملةً .." [متفق عليه] .

أما الهمُّ العازم فهو انعقاد النية والتماس كافة الأسباب الموطئة للفعل وهو نوعان : همٌّ عازم لفعل خير وهذا يثاب المرء عليه وإن لم يفعله – إن كان هناك مانع شرعي – والأخر هو الهمُّ العازم لفعل شر وهذا يُحاسب الإنسان عليه وإن لم يفعله بسبب مانع قهري خارج عن إرادته .

فامرأة العزيز عزمت على ارتكاب الفاحشة مع سيدنا يوسف ورتَّبت الأمر وخطَّطت له فغلَّقت الأبواب وتزيَّنت و.. لكن رفْض يوسف لإغوائها ودخول العزيز عليهما حالا دون ارتكابها الفاحشة فبعزمها هذا آثمة ، أما يوسف فكان همه همّاً عارضاً ولم يكن عازماً لذا قال لها يوسف ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

– هذه أول مرة أسمع فيها هذا التفسير .. أكمل يا أستاذ بارك الله فيك .

– انتشر خبر حب امرأة العزيز ليوسف ومراودتها له عن نفسه وتحدَّثت بذلك النساء في مجالسهن وأنكرن عليها فعل الفاحشة .

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف : ٣٠] .

وهذه الآية التي ذكَّرتنا بها خديجة عن فتنة المرأة بالرجل .. أليس كذلك يا خديجة ؟!

غضَّت خديجة طرفها وطاطأت رأسها : ....

وهناك موضع آخر يُظهر حبَّ فتاة لرجل حبّاً عفيفاً طاهراً ورغبتها في الزواج منه .

–ما هذا الموضع يا أستاذ ؟

– سأحتكن يا عبير عنه في مناسبة أخرى ودعيني أكمل قصة سيدنا يوسف .

قالت خديجة وقد غضَّت طرفها : أين هذا الموضع في كتاب الله ؟

– ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ﴾[القصص:٢٦] .

– لكن ليس في الآيات ما يدل على حبها له .

– في مناسبة أخرى سأذكر لك القصة كاملة وماذا قال فيها المفسرون .

النفس الأمارة بالسوء والحب

قالت عبير : أكمل لنا قصة سيدنا يوسف أولاً ، ثم احك لنا هذه القصة بعد ذلك .

– لما بلغ امرأة العزيز معرفة بعض نساء المدينة محاولتها ارتكاب الفاحشة مع خادمها وإنكارهن عليها ذلك قررت أن تفتنهن بمن فتنت هى به حتى يعذرنها ولا ينكرن عليها .

﴿فلما سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فلما رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف : ٣١] .

فلما فُتن به – وحب من لا يحلُّ لكَ فتنة من الله – وقطعن أيديهن ...

دق جرس الحصة الثالثة .

قالت عبير : أكمل يا أستاذ حضرتك عندنا هذه الحصة أيضاً .

–اتركوني أستريح خمس دقائق بين الحصتين .

قالت عبير مازحة : لن نتركك أكمل يا أستاذ وقل لنا كيف قطعت النساء أيديهن ؟

– قطعن أيديهن دون أن يشعرن من فرط جمال يوسف واستيلاء الشيطان على قلوبهن فولا إذ رأينه غضضن أبصارهن كما أمر الله تعالى ؛ لحفظهن الله من الغواية ولما قطعن أيديهن لكنهن زغن فأزاغ الله قلوبهن – وفي هذا درس فاحفظنه – وعند ذلك قالت امرأة العزيز مبررة غوايتها ومعترفة بجريمتها .

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢]

ومع ذلك لم تفقد الأمل في استجابته لرغباتها الشريرة وقررت أن تستخدم وسيلة ثالثة وهى تهديده بالسجن بعدما فشلت الوسيلتان الأخريان: الدلال، والإجبار.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف : ٣٢] .

لكن من ذاق حلاوة الإيمان وأحب الله وشرعه ليستعذب السجن في طاعة الله على النعيم في معصيته .

السجن أرحم من فتنة النساء

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَى مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ﴾ [يوسف : ٣٣] .

لكن نسوة المدينة – من الطبقة الأرستقراطية – رُحْنَ يطاردنه بحبهن في كلِّ مكان ويعرضن عليه أنفسهن مستخدمات كل ما في جعبة النساء من غواية – وهو كثير – ومستخدمات ما عندهن من أسلحة – وهى فتَّاكة – في الإيقاع به في حبائلهن وهنا يلجأ المؤمن إلى الله فهو خيرٌ حافظاً ؛ ليصرف عنه السوء والفتن والغواية ، والله دائماً سميع لدعاء المؤمن عليم بحاله قدير على إجابته إلى ما فيه صلاحه .

﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف : ٣٣- ٣٤] .

جزاء العفة والصبر عليها

ويدخل يوسف السجن ظلماً بسبب كيد النساء إن كيدهن كان عظيماً ، ولكن الحق لابد أن يظهر وإن كثر الباطل ، ولابد للفجر أن يطلع ولو طال الظلام – هذه سنة الله في خلقه فاصبر – ويرى الملك رؤياه العجيبة ويخبره ساقيه – صاحب يوسف في السجن – بعلم يوسف تأويل الأحاديث فيطلب الملك إحضار يوسف من السجن ليفسِّر له رؤياه، لكن يوسف الصديق يرفض أن يخرج من السجن إلا مرفوع الرأس عالي الهامة وأنه ما دخل السجن لأنه خائن داعر إنما

دخله لأنه أمين طاهر ؛ فيطلب من الرسول الذي أرسله الملك أن يفتح الملك التحقيق في قضية دخوله السجن مرة أخرى وأن يحقق مع نسوة المدينة اللاتي قطعن أيديهن ، ومكرن به السوء .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فلما جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٥٠] .

ويفتح الملك التحقيق مرة ثانية ويباشر التحقيق بنفسه ويستجوب الشهود بنفسه – وهذا ما ينبغي أن يفعله كل حاكم ألا يكتفي بالتقارير ترفع إليه من عماله بل يباشر أحوال الرعية بنفسه قدر جهده وهذا درس لكل مسئول فاحفظن – وتعترف نسوة المدينة بجريمتهن وبمراودتهن ليوسف عن نفسه كما يعترفن ببراءة يوسف مما نسب إليه زوراً .

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ [يوسف : ٥١] .

ولما وجدت امرأة العزيز أن الأمر قد اتضح ، وأن المستور قد افتضح ، وأن الإنكار لن يفيد اعترفت بجريمتها .

﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف : ٥١] .

وعَزَت امرأة العزيز جريمتها لإطاعتها نفسها الأمارة بالسوء التي تأمر من لم يعتصم بالله إلى كل حرام ، أما من اعتصم بالله ونهى النفس عن الهوى فلا سلطان لنفس عليه ولا لشيطان ، ولا لكائن من كان .

﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف : ٥١] .

ويخرج يوسف رافع الرأس ، موفور العرض ، برئ الساحة ، مطاع الأمر ، ويقول له الملك تمنى عليَّ فما تتمناه فهو مجاب فيطلب من الملك أن يجعله وزيراً

فيجيبه الملك إلى طلبه ويطلق يده في حكم مصر فمن أجدر لتولى هذه المناصب من يوسف الصديق حافظ الأمانة العالم بشرع الله وبأحوال الناس طاهر الذيل عفيف النفس .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فلما كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٥٤] .

وبعفة يوسف وصبره وإيمانه وأمانته استحقَّ أن يمكَّن الله له في الأرض يتبوأ من نعيمها ما يشاء ، ويتزوج بامرأة ذات شأن عظيم " ويقال : إن زوج زليخا – امرأة العزيز – كان قد مات، فولاه الملك مكانه، وزوَّجه امرأته زليخا، فكان وزير صدق " .

وفي هذا دليل على أن من يترك الحرام مخافة الله يرزقه الله بخير منه أو مثله بالحلال .

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦]

كان هذا أجره في الدنيا أما أجر الآخرة فأكبر درجات وأكبر تفضيلاً .

﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف : ٥٧]

هذه قصة من عفَّ نفسه عن الحرام ﴿فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٨] .

–احك لنا القصة الأخرى .

– أية قصة ؟

– القصة التي كنت تتحدث فيها مع خديجة .

– لا .. يكفي هذا اليوم ، وفي مناسبة أخرى إن شاء الله سوف أحكيها لَكُنَّ .

***